

مقاتل سمير قصير

حازم صاغية

لم يسقط القلم الشجاع والمستنير على يد 'الجهاز الأمني السوري - اللبناني' وحده، أو أن هذا الأخير لم ينفذ جريمته إلا في مناخ يتسبب بالقتل أو يحض عليه. فما بين 14 آذار (مارس) ويوم الجريمة حصل انحسار ملحوظ لما هو سياسي ووطني، فيما ترك للطوائف والأعيان والوجهاء ورجال الدين وأصحاب الأنا المتضخمة من كل نوع، أن يملأوا الفراغ. وإذا انحسر السياسي والوطني فحت روائح موبوءة اتخذت لها من الصيغ والأشكال عديدها. فإذا بالجنرال ميشال عون، العائد نابوليونا صغيراً، يخطط صورة الصراع ويموه طبيعته، مهجوساً بأن يؤسس التاريخ من صفر ومن عدم. وإذا بالتحالفات الانتخابية، وهو ما لا يستثنى أحد منه، تزداد انفصالياً عن الاصطفاة السياسي لـ 14 آذار، كي لا نقول عن المواقف المبدئية التي عبر عنها، فيما تزداد ارتباطاً بالحسابات الأبرشية الصغيرة. وإذا بالإقبال على الاقتراع، بوصفه الممارسة السياسية والمواطنة الأم، ينخفض على نحو يشي بالقنوط واللاجدوى العامين بعد نشاطية واسعة لافقة. أما الشبيبة التي لم تنضو في عبااء الطوائف، فتراات مثل أيتام على مآذب اللنام، تستجدي الإقرار بتمثيل ما تمثله استجداء .

وفي المطاف الأخير، تبددت المفارقة اللبنانية القاتلة وهي أن الانتخابات لم تعد لحظة سياسية مكثفة، بل غدت لحظة موازية للسياسة، تحمل في ذاتها احتمالات تعطيلها.

لقد انطوت أحداث الأسابيع الماضية على شيء قاتل للذين أرادوا 14 آذار جسراً الى لبنان أقل طائفية وأرفع حداثة، فانتهوا وجهاً لوجه حيال الصحوة الطائفية وسياسات صغائر الأمور مغلفة بلبنانية زجلية تافهة. وفي هذه الفسحة من ضمور المعنى، ومن انفكالك التعبئة حول الدلالات الوطنية، وانعقادها حول الدلالات الطائفية، أو الزاروبية، أو الحاراتية، قضى سمير قصير على النحو الذي قضى فيه .

فالزميل الذي سقط، بعد دور بارز في انتفاضة الاستقلال الثاني، كانت السياسة الوطنية وحدها ما يمكن أن يحصنه ويحصن الذين يشبهونه. فهو العلماني الديموقراطي، ابن الأب السوري والأم الفلسطينية، لا يجد حمايته في الطوائف والولاءات الصغرى، الأقرب الى غرائز صغرى. وهو المثقف ثقافة عربية، والمديني عيشاً ونزوعاً، وصل الى الوطنية الدستورية من موقع الدرس والتحصيل والمراقبة والمقارنة، فلم يرث هذه الصيغة الفولكلورية أو تلك من اللبنايات الريفية والطائفية، الهانجة والحادثة .

والحال أن سمير قصير كان واحداً ممن فتحو أعينهم على الشأن العام معترضين على لبنان القديم. فإذا دلت السنوات والتجارب اللاحقة على أن ذاك اللبنا لم يكن في السوء الذي صور فيه، بقي أن العودة اليه، منسوخاً أو مقاربا، ليست المثال المرغوب للمستقبل .

وإنما بمعان كهذه بدا الانتكاس عن 14 آذار، لمن هم مثل سمير، سكيناً لا تقل شفرتها حدة عن شفرة 'الجهاز الأمني السوري اللبناني' وسكينه .

أما المدى الذي بلغته الدناءة ونزعة التدمير كما تجسدا في الجريمة، فينبه الى القدر الذي كان ينبغي أن تبلغه سياسة وثقافة سياسية جذريتان لكنهما، في المقابل، سلكتنا طريقاً مختلفاً .

فإذا صح تقدير كهذا، صح أن إعادة الاعتبار لروحية 14 آذار، واسترجاع زخمه، هما وحدهما ما يحد من الشعور بالخسارة، وما يوقف الموت المجرم عند حده، فلا تتكرر الفاجعة غداً بسمير قصير آخر .

الموضوع: عام

المصدر: الحياة
